بسم الله الرحمن الرحيم

أهـم ما يحُول دون سقوط الإنسان وهلاک المـــجتمع (المحاضرة8)

الزمان: 07/محرم الحرام/1442 - 27/آب/2020

المكان: طهران، موكب "ميثاق با شهدا" (العهد مع الشهداء)

من الممكن أن نتخذ من الإنفاق والمواساة أنموذجًا لإدارة المجتمع والتأسيس لحضارة/ فلننظر إلى الإنفاق والمواساة نظرة أعمق من التصدُّق!

من الممكن أن نتخذ من الإنفاق والمواساة أنموذجًا لإدارة المجتمع والتأسيس لحضارة

سنتناول الليلة، إلى حد ما، الأبعاد الفردية لموضوع «الإنفاق»، في مقابل «الإمساك»، وهو الذي يُعَدّ اختبارًا مهمًّا للإنسان في الحياة الدنيا، أما في الليالي القادمة فسنتطرق - إن شاء الله - إلى أبعاده الاجتماعية والحضارية. إن لبعض مفاهيم ديننا دلالاتٍ اجتماعية جَمَّة، في حين يظن البعض أنْ ليس لها سوى الجانب الفردي. فالتقوى مثلًا ليست سلوكًا فرديًا محضًا، فإننا لو اتّخذنا من التقوى أنموذجًا فإننا سنحصل على ضربٍ من الإدارة على مستوى المجتمع. وكذا هو الإنفاق، الذي هو نقيض الإمساك؛ فلو أننا جعلنا من الإنفاق الوجه المشترك لجميع المفاهيم الدالة على البذل والعطاء (مثل الزكاة، والتصدُّق، والمواساة، ...إلخ) فمن الممكن أن نتخذ منه أنموذجًا لإدارة البلد، والمجتمع، والتأسيس لحضارة؛ الحضارة نفسها التي سيقيمها الإمام صاحب الزمان(عج)، والتي ستكون العدالة إحدى صفاتها البارزة. فإنه لا بد، من أجل تصميم الحضارة الإسلامية وتعريفها، من التركيز على مصطلح «الإنفاق» المفتاحي. لا بد أن نطبّق هذه المفردات والمفاهيم بمعانيها الفردية وسنجد - بطبيعة الحال - أن آثارها الاجتماعية ستتحقق أيضًا. فقد رُوي عن نبينا الكريم(ص) قوله: «كَما تَكُونُونَ يُوَلَّى عَلَيكُمْ» (النهاية في غريب الحديث والأثر/ ج١/ ص١١٦)؛ أي كيفما تكونوا يكون الحاكم الذي يحكمكم. فحين يسود بين الناس «الإنفاقُ» لا «الإمساك» فلن يمسك مقاليد أمورهم مسؤولون سيّئون، وهذه أول الآثار الاجتماعية السياسية لمثل هذه المفاهيم.

يصرّح الله عز وجل: "أريد أن أختبركم بما أعطيتُكم"

يقول الله عز وجل في مُحكم كتابه العزيز: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُم» (الأنعام/١٦٥). وإن الحد الأقصى لمعنى قوله: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الْأَرْضِ» هو أنّ في وسع الإنسان أن يكون خليفة الله في الأرض، وهو مقام للإنسان في قمة السُمُوّ. أما الحد الأدنى من معناه فهو أن الإنسان يرث أسلافَه وأنّ ما كان لديهم من إمكانيات هي الآن تحت تصرفه. «وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ»؛ أي هناك فوارق بين بعضكم البعض، وأنا مَن أَوجَدَ هذه الفوارق؛ فترى البعض أقوى بامتلاك أشياء معيَّنة، وترى البعض الآخر يمتلك أشياء أخرى أكثر وهو أقوى بها. يستهل الله تعالى كلامه بوصف عامٍّ لحياة الإنسان ثم يقول: «لقد جعلتكم خلفاء لي في الأرض وأوجَدتُ بينكم فوارق أيضًا. ثم يقول: «لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُم»؛ أي لأختبركم بالأمور التي أعطيتكم إياها. إذن الله عز وجل يقولها بكل وضوح: «أريد أن أمتحنكم بالأشياء التي تملكون». وإذا بالإنسان مشغول بتملُّك المزيد! وإنكم لتعلمون أن الحد الأدنى من اجتياز الاختبار في الممتلكات بنجاح هو الشُكر، وإن التوقع الطبيعي لله تعالى منا فيما يتصل بما نملكه هو أن «نُنفِق» ونَبذُل منه. يقول القرآن الكريم في موضع آخر: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهاجًا وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ في ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرات» (المائدة/٤٨)؛ أي جعلنا لكُلٍّ واحدٍ منكم شريعة وطريقًا واضحة... لكن الله عز وجل يريد أن يمتحنكم بالأشياء التي أعطاكم إياها (ويُنَمّي مواهبكم المختلفة)، إذن فسابِقوا بعضكم بعضًا بالخيرات والحسنات. يقول تعالى: «لقد خلقتُكم وبينَكم فوارق لأختبركم بما تملكون». إذن على الإنسان أن يعي أن كل ما يملك هو عُرضَةً للامتحان، وأن الله إنما أعطاه إياه ليمتحنه به، وأنه سيفقد كل واحد من هذه الممتلكات بطريقةٍ ما. كلام الله تعالى هذا هو في منتهى الصراحة، ولا بد أن نُوليه اهتمامًا لكي ترسخَ، بإذن الله، في المجتمع - شيئًا فشيئًا - فكرةُ أنه «ليس من المُفتَرَضِ أن نحتفظ بشيءٍ»، وذلك من باب كون هذه الفكرة ضربًا من التأهُّب الروحي أو قيمةً من القيم.

إن لم ينفق الإنسان في سبيل ولي الله، فسينفق من أجل عدو الله!

إن من العقلانية بمكان أن نتنازل طواعِيَّةً - لكن في سياق أوامر الله تعالى بالطبع - عما نملك (كأن نُنفِقَ ونُزَكِّي، ..إلخ)، وإلا فإننا سنُسلَبُ هذه الممتلكات بأفظع الطرق! وإن من أسوأ الطرق التي يَستَرِدُّ اللهُ بها من الإنسان ما يملك هي أن الأخير إذا لم يتحرك من أجل ولي الله ولم ينفق في سبيله فسينفق في سبيل عدو الله؛ أي إنه سيرى نفسه في أوضاع تضطره إلى أن ينفق من أجل عدو الله، ويبذل له من كرامته، وهذه قمة القباحة؛ «مَنْ لَمْ يُنْفِقْ فِي طَاعَةِ اللهِ ابْتُلِيَ بِأَنْ يُنْفِقَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلّ، وَمَنْ لَمْ يَمْشِ فِي حَاجَةِ وَلِيِّ اللهِ ابْتُلِيَ بِأَنْ يَمْشِيَ فِي حَاجَةِ عَدُوٍّ اللهِ عَزَّ وَجَل» (من لا يحضره الفقيه/ ج٤/ ص٤١٢). ولا تقتصر القدرات والممتلكات على الأموال، فإن الله تعالى سيمتحننا بكل ما أعطانا. ويا ليت الأمرَ يقف عند إفناء الله لممتلكاتِنا هذه إذا ما أخفقنا في الاختبار؛ كأنْ يسرقها سارق، أو شيئًا من هذا القبيل، إلا أن بعض أنماط العقوبات التي يُنزِلها الله سبحانه بعباده، على الخصوص في ما يتصل بقضية ولي الله، هي أشد من هذا بكثير. إن لموضوع الإنفاق أبعادًا سياسية اجتماعية واسعة النطاق جدًّا، يرتبط جزء منها بولي الله. على سبيل المثال، إن لم ينفق امرؤٌ كرامتَه وسُمعتَه في سبيل ولي الله فسيبتليه الله عز وجل بأن ينفقهما من أجل عدو الله. وهذا الصنف من الأفراد في مجتمعنا نحن لم يكونوا قلة؛ أحدهم كان بمستوى مرجع تقليد، وإذ إنه لم ينفق سمعته وماء وجهه في سبيل الإمام الراحل(ره)، تسرّبَ عنه شريطُ تسجيل فيما بعد يبذل فيه ماءَ وجهه من أجل رئيس الولايات المتحدة!

إن لم تكن على أُهبَةٍ روحيةٍ للعطاء فلن يتقبل الله منك أكثر تضحياتك

هـذا الإنفـاق والعطـاء (في مختلـف أبعـاده) اختبـار مهـم، وعلينـا أن نسـتعد لمثلـه. ولا بـد أن يكـون تأهّبُنـا لـه عـلى مسـتوى مـن العُلُـوّ مـا يجعلُنـا نخاطـب اللـه جـل شـأنه كلـما اسـتيقظنا صباحًـا قائلـين: «إلهـي، مـا الـذي عـليَّ إنفاقُـه الآن؟» عـلى أننـا، مـن خـلال هـذا الامتحـان، سـنحصل عـلى الكثـير أيضًـا، فـإن اللـه تعـالى لا يعطّـل حياتَنـا. وإن للدفـع والعطـاء قواعـد؛ فـلا ينبغـي إنفـاق كل شيء متـى مـا كان وأينـما كان، لكـن لا بـد أن نكـون عـلى اسـتعداد روحـي لهـذا عـلى أيـة حـال. فـإن لم تكـن مسـتعدًا روحيًـا للعطـاء فـإن اللـه لـن يقبـل أكثر قرابينـك، بـل لـن يمنحـك الاسـتحقاق لتقديـم أكثر التضحيـات. كان الشـهداء يضحّـون ضجيجًـا مـن أجـل الشـهادة. ينقـل قائـد الثـورة الإمـام الخامنئـي (حفظـه اللـه) في ذكـرًى عـن أحـد الشـهداء أنـه شـاهد في المنـام، قبـل استشـهاده، شـهيدًا آخـرَ فسـأله: «مـا الـذي عـليَّ صنعُـه لأستشـهد؟» فأجابـه: «عليـك بـذرف الدمـوع.. الدمـوع!» أي إن الأمـر لا يُحَـلّ بطلـب بسـيط. وإن لموضـوع العطـاء وإنفـاق مـا في اليـد دائـرةً في منتهـى السـعة، أحـد مظاهرهـا الشـهادة. يجـب أن تكـون جهوزيتـك بحيـث لا تقـول: «إن لـزم الأمـر، فـلا منـاص مـن ذلـك، يجـب أن أُنفـق!» فـإن قلـتَ ذلـك فـإن اللـه تعـالى سـيتوقف عـن القبـول منـك بعـد حَـدٍّ معيَّن.

فلننظر إلى الإنفاق والمواساة نظرة أعمق من التصدُّق!

إذا أردتـم أن يتنظّـفَ مجتمـعٌ ما من أنواع السرقة، ولا يأكل مسـؤولوه الريع، ولا تسـتشري فيه سـلوكيات تتناسـب مـع النظـام الرأسـمالي الظـالم الجائـر، ولا يتـولى المناصب فيـه مسـؤولون متغرّبون، ...إلـخ فبَرِّزوا فيـه «الإنفـاق» عـلى نحـو موصول. لا ينظـرَنَّ البعـضُ إلى موضوع الإنفاق والمواساة نظرة سـطحية فيظن أن المواسـاة هـي التصدُّق عينُـه! فـإن التصـدّق والمسـاعدات بدافع الإيمان ليسـت هي إلا مسـتوًى ضئيلًا مـن المواسـاة، إذ إن للأخـيرة حـدودًا في قمـة العلُـوّ لا يمكننـا تطبيـق بعضهـا إلا في زمـن مـا بعـد الظهـور.

علينا أن ننظر إلى الإنفاق نظرةً أعمق بكثير، لا في حدود التصدّق! فدفع الصدقات موجود في الدول الغربية أيضًا؛ إذ حتى الكارتلات والتراستات تقيم المؤسسات الخيرية، وتتصدق على الفقراء ببعض المال، وتَظهَر بمظهر المُحسن، وقد تكون بعض هذه السلوكيات صادقة أيضًا. فهؤلاء الذين يتسببون بأفدح حالات الفقر والحرمان في العالم يدفعون إلى بعض الفقراء بعض الفلوس. ما أقصِدُه من الإنفاق والعطاء ليس هذه الأمور.

كل مسؤول متغرّب هو مولّد للفقر في المجتمع

إن كل متغرّب وكل مسؤول متغرّب فكريًّا هو مولِّد للفقر في المجتمع. ومن أجل أن لا يكون لدينا مسؤول متغرّب فلا بد أن تُبَرِّزوا موضوع الإنفاق والمواساة كل تبريز وتمنحوه أهمية كبرى وتؤكّدوا عليه بشدة. خلال العام أو العامَين الماضيَين، وفي أحلك الظروف الاقتصادية التي يمُرّ بها البلد، شُيِّد في إحدى مدن البلاد عدد كبير من الفِلَل، بعضها لمسؤولين. وحتى لو لم تكن هذه الفِلَل من أموالٍ مسروقة وشُيِّدت بشكل قانوني - على أنّ أكثرها لم يحصل على تصاريح قانونية - فيجب أن نتساءل: «من أين لكم هذه الأموال؟!» لسنا بُخلاء، لكنّ بناءَ هذا العدد من القصور في غضون عامين بعيدٌ كل البعد عن المواساة، هذا وهناك بين أصحابها مسؤولون أيضًا! هذا الوضع تفصله عن ثقافة المواساة مسافةٌ شاسعة. وإنه ليتحتّم علينا في مثل هذه المَواطن أن نأخذ بتلابيب أمثال هؤلاء قائلين لهم: «أين عيشُ المواساة خاصَّتُك؟!»

لكي تنفق في سبيل الله لا بد أوّلاً أن تُكثِر التوسل إلى الله ليوافق

لكي ننجوا من السقوط والهلاك (سواء سقوط الفرد أو هلاك المجتمع) علينا أن نبلغ حد التوسّل إلى الله عز وجل ليعِينَنا على البذل والعطاء. ومن النماذج على هذا الأمر هو قول الشيعة ومُحِبّي أهل البيت(ع) علَنًا إذا جاؤوا أئمة الهدى(ع): «جُعِلتُ فِداك!» ولم تكن هذه مبالغة، كما لم يكن الإمام(ع) يمنعهم من هذا قائلًا: «لا داعي لكل هذه الأحاسيس!» كلا، بل إن واجبهم كان يحتّم عليهم ذلك. استعدّوا للبذل والإنفاق. نبي الله آدم(ع) فكّر لحظة في أنه: «أتريد الاحتفاظ بكل هذا إلى الأبد؟» فانتهى الأمر! لقد سقط.. أي تركه الله، فسقط أرضًا.

بعض مراتب العطاء سهلة، بل واجبة

يجب أن نكون على استعداد للعطاء في سبيل الله، وأن نعلم أنه عز وجل لا يقبل منا بسهولة! فمن أجل الشهادة مثلًا عليك أن تذرف الدمع.. أن تنتحب، فإن الله لا يقبل قربان كل امرئ بكل بساطة. الله تبارك وتعالى لم يقبل من إبراهيم الخليل(ع)! بالطبع لا أقصد أن إبراهيم(ع) قصَّرَ في تقديم قربانه، بل قصدي هو أن الأمر ليس بهذه البساطة. إن بعض مراتب الإنفاق سهلةٌ، بل وواجبةٌ أيضًا، وإنّ على الدولة الإسلامية أن تتعامل معها بجدية؛ مثل قضية الزكاة. بالطبع نحن نعاني اليوم من بعض المشاكل في هذا المجال؛ كموضوع الضرائب، وكل ما شابهها. إذن في ما يتصل بالبذل والإنفاق فإن على الدولة الإسلامية أن تنهض بجانب منه، وفي جانب آخر منه فإن من الواجب عليك أنت أن تدفع، وفي جانب ثالث لا بد أن تبذل قصارى جهدك، وتخاطب ربك: «إلهي، أين عليَّ أن أنفق نفسي، ومواهبي، وقدراتي؟» في أي مجال نريد أن ننفق قدراتِنا في سبيل الله؟ إنْ كنا نرغب في العمل، فماذا علينا أن نصنع؟ علينا – بادئ ذي بِدْء – أن نتوسل كل توسل، ونستجدي من الله المِنّة، قائلين: «يا إلهي، أريد أن أخصص وقتًا (للبذل)، أتوسّل إليك... أُقسِمُ عليك بأوليائك...». فيقول الله تعالى: «كم تريد أن تخصّص من الوقت لذلك؟». فنقول: «يا رب، أُخصِّصُ ساعتَين في اليوم». ولربّما يقول لك الله: «أَقبَلُ منك دقيقتَين فقط!» هذا إذا قَبِل، وأعطاك فرصة العمل من أجله. ثم بعد العمل يأتي الدَورُ لمسألة أنّه: هل سيقبل عملك أو لا؟! إن موضوع البذل والإنفاق ليجنِّن الإنسان. العقيلة زينب(س) جاءت إلى المصرع (يوم الطف) تتوسّل إلى ربها أن يَقبَلَ منها أخاها الحسين(ع)! «إِلهِي، تَقَبَّلْ مِنّا هذا القُربان» (عوالم العلوم والمعارف والأحوال/ ج١١/ ص٩٥٨).

لربما يكون بذل النفس أهون من بذل السمعة، وبذل السمعة أهون من تخصيص الوقت!

لا بد أنكم سمعتم أن «بعض الناس يحملون أرواحهم على أكفهم»؛ وهذا يعني أنهم حاضرون للتنازل عن أرواحهم وبذلها. والآن يوجد آخرون قد حملوا ليس الأرواح فقط، بل باقي ما يملكون أيضًا على أكفهم ليقدّموها لربهم. على أن بذل النفس أحيانًا يكون أهون من بذل السمعة، وإن بذل السمعة أحيانًا يكون أهون من تخصيص الوقت لأمر ما! فالبعض لا يخصّص وقتًا حتى للإعجاب ببضعة منشورات على شبكات التواصل، أو حتى لمتابعة بضع صفحات اجتماعية رصينة، ليُعلن: «أنا من أنصاركم». بل لا رغبة له أساسًا في نشر منشور، أو تأسيس صفحة، أو التواصل مع بضعة أشخاص، أو المجاهدة قليلًا (في مجال تنوير الآخرين)... في الخبر إن الله تعالى إذا كره عبدًا من عبيده شغل قلبه شغلًا لا يتفرغ معه لتخصيص بعض الوقت لربه، وإذا به يقول: «للأسف، ما عندي وقت!» لا تخطئ يا هذا، بل للأسف هو الذي لا يفسح لك المجال؛ «...وَإِنْ لَا تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ قَلْبَكَ شُغُلًا بِالدُّنْيَا، ثُمَّ لَا أَسُدَّ فَاقَتَكَ، وَأَكِلْكَ إِلَى طَلَبِكَ» (الكافي/ ج٢/ ص٨٣). إن على الذين يخصصون وقتًا للموكب الحسيني، ويُوَفَّقون لفعل شيء للحسين(ع) أن يُكثِروا من السجود شكرًا لله تعالى. وإن عليك إذا قرأت زيارة عاشوراء أن تسجد لله شكرًا؛ وكأنك تخاطب ربك: «إلهي، أنا مُمتَنّ لك أن سمحتَ لي أن أخصّص وقتًا لهذا».

لا يقبل الله القرابين من كل أحد/ إنْ تردّدتَ قليلاً ساعة البذل فـ...

المشكلة هي أن الله تعالى لا يقبل بهذه البساطة من كل أحد. فعندما جاء الإمام الحسين(ع) إلى عُبيد الله بن الحر الجعفي ودعاه إلى نصرته، قال عبيد الله: «وَاللهِ مَا خَرَجتُ مِنَ الكوفَةِ إلّا مَخافَةَ أَنْ تَدخُلَها، وَلا أُقاتِلَ مَعَكَ، وَلَو قَاتَلتُ لَكُنتُ أَوَّلَ مَقتول»؛ أي: إني أعلم أنك لن تنتصر. فتركه الحسين(ع). ثم قال عبيد الله: «وَلٰكِنْ هٰذا سَيفي وَفَرَسي فَخُذهُما!» وكان أهل البيت(ع) يقبلون الهدايا، لكن الإمام الحسين(ع) هنا أعرض عنه بوجهه وقال: «إذا بَخِلتَ عَلَينا بِنَفسِكَ فَلا حَاجَةَ لَنا في مَالِك» (تفسير نور الثقلين/ ج٣/ ص٢٦٨-٢٦٩). أَوَهَل يقبلون من الآخرين بهذه البساطة؟!

في ما يخص موضوع الإنفاق عليك أن تجتث أصول الإمساك من قلبك بالكلية. فما إن تتردد (بالإنفاق) قليلًا حتى يقول الله: «يا ملائكتي، لا تمتحنوه امتحانَ إنفاقٍ من الطراز الأول أبدًا». ليس الله بغائب عن أعماق قلب الإنسان إذا امتلك هذا شيئًا وتعلّق به ولم يحب تركه، فهو تعالى ينظر إلى أعماق قلبه. ففي الخبر إن الله ينظر إلى ما يُسِرّه الإنسان في أعماق نفسه فيُخرجه (إن كان خيرًا أو شرًّا) ويُلبسه إياه كالرداء: «مَن أَسَرَّ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللهُ رِدَاءَهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ» (الكافي/ ج٢/ ص٢٩٦). والسِرّ هو ما خفي من مكنون القلب، وإن الله تعالى يرتّب مقدَّرات الإنسان على أساسٍ من سِرّه. إن الله تعالى لا يتقبل القرابين من كل أحد، فانظر إذن مَن كانت «الرباب» حتى يتقبل الله عز وجل منها هذا القربان العظيم؟ تفحّص ما كان يجول في أعماق سِرّها؟ أَوَتُقبَل القرابين بهذه البساطة؟! انظر أي عظمة كانت لسيدتنا الزهراء(س) وما كان يجول في قلبها حتى تقدّم كل هذه التضحيات الجسام؟!

إن لم تُطِق بذل بعض ما تملك فتوسّل بربك

على المرء أن يُنَقّي قلبَه ويهيئَه. حتى وإن لم تُطِق بذل بعض ما تملك فلا بأس عليك، توجّه إلى ربك مناجيًا متوسّلًا به؛ قل له، على سبيل المثال: «يا رب، لستُ أستطيع... إن لي بيتًا، لكني عاجز عن التبرع بنصفه في سبيلك. اللهم ارحمني فإني ضعيف، بَيدَ أني أحب أن أبذل في سبيلك كل وجودي، أوَدّ لو أمنح صاحب الزمان(عج) كل وجودي...». ناجِ الله بخصوص هذه المسائل عَلَّهُ يدبّر لك أمرًا. إن لم يحصل الفتى الذي يشارك في مجالس أبي عبد الله الحسين(ع) على توقيع على صك شهادته من الإمام الحسين(ع) فما الذي حصلَ عليه يا ترى؟! أسأل الله أن يطيل في عمرك ويديم عزك ويجعل حياتك وَقفًا لأبي عبد الله الحسين(ع)، لكن هل سيقبلون منك؟! هل سيأخذون منك شيئًا؟ عَلَّهم يأخذون منك ذاتَ يوم مالًا أو سُمعة. في النهاية أُبذُل شيئًا ما...

يقال إنه حينَ لم يأخذ الله تعالى من إبراهيم الخليل(ع) ولَدَه أخذَ بالبكاء، وحين استفسر الله منه عن سبب بكائه وانقباض قلبه تعلل نبي الله(ع) بأنه: أوَيمكن أن لا يقدم العبد بين يدي ربه أضحية؟ حذار من أن نكتشف ساعة الاحتضار أننا لم نقدم في سبيل الله تضحية تُذكر. يقال إن كل من ليس في بدنه يوم القيامة جُرحٌ من حرب سيحس نقصًا كبيرًا لا يمكن سَدُّه! حذار من أن يكون أمرنا بحيث لا نصاب ولو بجرح واحد في سبيل الله تعالى! والقرآن الكريم صريح جدًّا في هذا المجال؛ فمنطِقُه أنه: أَوَيُمكن أن يتساوى الذين لم يتضرروا في سبيل الله أدنى ضرر (أو بالأحرى لم يقدّموا أي تضحية) مع ذوي الدرجات العالية عند الله؟! «لا يَسْتَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدينَ دَرَجَة» (النساء/٩٥). فكيف نستأصل هذه الأمور من قلوبنا؟ نستأصلها بالدعاء، والمناجاة، والتوسل...

من شأن الوصول إلى "حقيقة العبودية" أن يجتث أصول الإمساك من النفس

ولأتلُ عليكم حديثًا عرفانيًّا، يهتم به العرفاء غاية الاهتمام. بالطبع جميع الأحاديث عرفانية بشكل من الأشكال، لكن أرباب المعرفة يُولُون بعضَها اهتمامًا أكبر. يقول المرحوم السيد القاضي: «اكتبوا هذا الحديث، واحملوه وواظبوا على قراءته». العمَلان اللذان كان سماحته يوصي بهما أكثر من غيرهما هما قراءة زيارة عاشوراء وقراءة هذا الحديث، وهو «حديث عنوان البصري» (مشكاة الأنوار في غرر الأخبار/ ص٣٢٧). كان عنوان البصري يُصرّ على رؤية أبي عبد الله الصادق(ع) وقد قصده مرارًا لكن الإمام كان يرفض لقاءه متذرّعًا بأن لا وقت لديه. ولم يكن عنوان البصري معتقدًا بإمامة الإمام الصادق(ع)، لكنه في الوقت ذاته لم يكن مسلمًا سيّئًا، فقد كان يُوَقّر أهل البيت(ع). كان يعتقد بغزارة علم الإمام الصادق(ع) ويود لقاءه ليتعلّم منه شيئًا. يقول عنوان:

«فَدَخَلْتُ مَسْجِدَ الرَّسُولِ(ص) وَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ رَجَعْتُ مِنَ الْغَدِ إِلَى الرَّوْضَةِ وَصَلَّيْتُ فِيهَا رَكْعَتَيْنِ وَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ يَا اللهُ يَا اللهُ أَنْ تَعْطِفَ عَلَيَّ قَلْبَ جَعْفَرٍ وَتَرْزُقَنِي مِنْ عِلْمِه». فأذِنَ لي بعد ذلك لما قصَدْتُه. «فَجَلَسْتُ، فَأَطْرَقَ مَلِيّاً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَبُو مَنْ؟ قُلْتُ: أَبُو عَبْدِ اللهِ. قَالَ: ثَبَّتَ اللهُ كُنْيَتَكَ وَوَفَّقَكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ». يقول عنوان: «فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَوْ لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ زِيَارَتِهِ وَالتَّسْلِيمِ غَيْرُ هَذَا الدُّعَاءِ لَكَانَ كَثِيرًا». فقال الإمام(ع): «مَا مَسْأَلَتُكَ؟ فَقُلْتُ: سَأَلْتُ اللهَ أَنْ يَعْطِفَ قَلْبَكَ عَلَيَّ وَيَرْزُقَنِي مِنْ عِلْمِكَ... فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، لَيْسَ الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبِ مَنْ يُرِيدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ» أي يقع في قلب عبدِهِ الحقيقي. فكل من كان عبدَ الله حقًّا علَّمه الله من علمه؛ «فَإِنْ أَرَدْتَ الْعِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ الْعُبُودِيَّةِ... قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ؟ قَالَ: ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ» ويعدّد الإمام(ع) ثلاثة أشياء، الثاني والثالث منها متصلَين في واقع الأمر بالأول. ونستطيع القول إن الإمام(ع) قد طرح حقيقة يمكن من خلالها اقتلاع جذور الإمساك من نفس الإنسان.

حقيقة العبودية هي "عدم إحساس المِلكية" وهو ما يسَهِّل الإنفاق على المرء

يقول(ع): حقيقة العبودية ثلاثة أشياء: الأول أن لا يرى العبدُ أنه يملك شيئًا: «أَن لا يَرَى العَبدُ لِنَفسِهِ فِيمَا خَوَّلَهُ اللهُ مِلكًا». فإن رأى العبدُ نفسَه مالكًا فلن يتمكن بعد ذلك من ضبط نفسه. لَقِّن نفسك أنْ: «أنا لستُ مالك شيء! الأشياء التي في حوزتي أعاروها لي مؤقّتًا». فلنعتقد بهذا الشيء، فإن إحساس المِلكية يُهلك الإنسان؛ «لِأَنَّ العَبِيدَ لا يَكُونُ لَهُمْ مِلْكٌ» أي إن الرقيق لا يملك شيئًا خاصًّا به. بالطبع شباب عصرنا لا يفهمون معنى «الرقيق» لأنهم لم يروا رقيقًا في حياتهم. في ذلك الزمن، حيث كان للناس عبيدٌ وأرقاء وكانوا يدركون معنى العبد، كانت هذه العبارة مفهومة تمامًا، أما الآن فاستيعابها صعب بعض الشيء بالنسبة إلينا. لكن فلتحاولوا تصور الموضوع على أية حال؛ العبدُ أو الرقيق لا يشبه العامل أو الخادم في البيت، إنه شيء أفظع من هذا بكثير.

وبعـد أن قـال الإمـام(ع): «لِأَنَّ العَبِيـدَ لا يَكُـونُ لَهُـمْ مِلْـكٌ» يضيـف(ع) أنهـم لا يحسـون أنهـم يملكـون شـيئًا، والـذي لا يحـس بأنـه يملـك شـيئًا سـينفق مـا أمـره اللـه بـه بـكل سـهولة: «يَـرَوْنَ المَـالَ مَـالَ اللـهِ يَضَعُونَـهُ حَيـثُ أَمَرَهُـمُ اللـهُ بِـهِ». فحقيقـة العبوديـة هـي عـدم إحسـاس المِلكيـة وهـو مـا يُسَـهِّل الإنفـاق عـلى الإنسـان كثـيرًا، وهـذا هـو سر المعرفـة. حقيقـة العبوديـة هـي سر المعرفـة؛ أي إن باسـتطاعتك أن تفهـم العالَـم مـن خـلال هـذا الموضـوع.

حين لا ترى نفسَك مالِكًا لشيء فلن تدبّر شؤون نفسك ولن تحتَجَّ على تقدير الله

ثـم يقـول(ع): «وَلا يُدَبِّـرُ العَبـدُ لِنَفسِـهِ تَدبِـيرًا»؛ فحـين لا تـرى نفسـك مالـكًا فإنـك لـن تدبّـر شـؤون نفسـك؛ أي إنـك لـن تَحتَـجَّ عـلى تقديـرات اللـه عـز وجـل. والعبـارة الثانيـة هـذه هـي مـن أجـل حقيقـة العبوديـة. والثالـث: «وَجُملَـةُ اشـتِغَالِهِ فِيمَـا أَمَـرَهُ تَعَـالَى بِـهِ وَنَهَـاهُ عَنـهُ»؛ أي ليـس في حياتـه كلهـا مـن شُـغل يشـغَله سـوى امتثـال أوامـر اللـه تعـالى والانتهـاء عـن نواهيـه؛ فهـو غـير مشـغول بجمـع المـال، ولا بالاكتنـاز، ولا بالتباهـي، ولا بالتحسُّـر، ولا بالحسـد. يقـول في ذات نفسـه: «مـا لي وهـذه الأمـور؟!» افـرض أن صاحـب عمـلٍ ناولـك مسـحاةً وسـألك: «أتعمـل عنـدي ليـوم واحـد إزاء أجـر يومـي؟» فأجبتـه: بـلى. فـإذا بالمسـحاة التـي ناولـك إياهـا مثلومـة مـن طرفهـا، فرُحـتَ أنـت تتمتـم مسـتنكرًا: لماذا المسـحاة مكسـورة؟ يـا هـذا، ومـا شـأنك أنـت؟! أنجـز أنـت عملَـك بهـذه المسـحاة بالـذات. نحـن حسَـبْنا لـك أجـرًا يوميًّـا، فاعمـل بهـذه المسـحاة المكسـورة المقـدارَ الـذي تقـدِر عليـه. فالمسـحاة مسـحاتنا، والحديقـة حديقتنـا، وأنـت تقبـض أجـرك، إذن باقـي الأمـور لا تخصـك أنـت... ألا وإن حياتَنـا كلَّهـا إزاء مالكنـا (وهـو اللـه جـل وعـلا) هـي هكـذا! تقـول: «إلهـي، هـذا الجـزء مـن منـزلي معيـوب». يقـول لـك: «لكنـه ليـس منزلَـك، أنـا الـذي أعطيتـك إيـاه». تقـول: «لكـن أعصـابي سـتتحطم بهـذه الطريقـة!». يجيبـك: «ولماذا تتحطـم أعصابـك؟!». «لأني لا أسـتطيع أن أعمـل جيّـدًا». «فليكُـن! لا أريـدك أن تعمـل لي أكـثر مـن هـذا المقـدار».

ثم يضيف: «لا تَحسَبْ نفسَك مالكًا أصلًا، إن لم تَحسَبْ نفسَك مالكًا فلن تعترض». «وماذا أصنع حينئذ؟! بماذا أشغَل نفسي؟». «اِشغَلها بامتثال أوامر الله». «إذن فوجّه أنتَ لي الأوامر، ولا شأن لي بباقي الأمور». إن مستوى هذه الرواية عالٍ جدًّا.

حين لا يرى العبدُ نفسَه مالكًا يَسهُل عليه الإنفاق

يتابع الإمام(ع): «فَإذا لَم يَرَ العَبدُ لِنَفسِهِ فِيما خَوَّلَهُ اللهُ تَعالَى مِلكًا هانَ عَلَيهِ الإنفاق»! على سبيل المثال حين أمر الإمام الصادق(ع) أحد أصحابه بأن يدخل إلى التنور امتثل هو في الحال ودخل التنور! قد تقول له أنت: «احترس من الاحتراق...». فيجيبك: «جسدي ليس مِلكي، الواجب عليَّ هو امتثال الأوامر!» حينذاك يرتقي فَهْمُ أمثال هؤلاء رُقِيًّا حتى تُزاح من أمام بصائرهم كل أنواع الحُجُب والجهل. يقول(ع) في الحديث: «هانَ عَلَيهِ الإنفاقُ فيما أَمَرَهُ اللهُ تَعالَى أَن يُنفِقَ فيه».

عندما تُسَلِّم لقضاء الله وقَدَره تهون عليك مصائبُ الدنيا

يتابع(ع): «وَإذا فَوَّضَ العَبدُ تَدبيرَ نَفسِهِ عَلَى مُدَبِّرِهِ هانَ عَلَيهِ مَصائِبُ الدُّنيا». جاء في الخبر أن رجلًا شكى لأبي عبد الله الصادق(ع) ما يقاسي من الأوجاع فقال(ع) بحسب الرواية: «يا عبدَ اللهِ لَو يَعلَمُ المُؤمِنُ مَا لَهُ مِنَ الأَجرِ فِي المَصائِبِ لَتَمَنَّى أَنَّهُ قُرِضَ بِالمَقاريض» (الكافي/ ج٢/ ص٢٥٥). وعن أبي جعفر(ع) قال: «إنَّ اللهَ تَبارَكَ وَتَعالى إذا أَحَبَّ عَبْدًا غَتَّهُ [خنقه] بِالبَلاءِ غَتًّا وَثَجَّهُ [أسالَه] بِالبَلاءِ ثَجًّا فَإذا دَعاهُ قالَ: لَبَّيكَ عَبدِي لَئِن عَجَّلتُ لَكَ مَا سَأَلتَ إنِّي عَلَى ذَلِكَ لَقَادِرٌ وَلَئِن ادَّخَرتُ لَكَ فَمَا ادَّخَرتُ لَكَ فَهُوَ خَيرٌ لَك» (الكافي/ ج٢/ ص٢٥٣). انظر أي عالَم يرسمه الإمام(ع) لنا!

أول درجات التقوى هي أن لا نشعر بالمِلكية/ شعورنا بالمِلكية يعني أننا لم نبلغ أول درجات التقوى

ويضيف الإمام(ع): «وَإذا اشتَغَلَ العَبدُ بِما أَمَرَهُ اللهُ تَعالَى وَنَهاهُ لا يَتَفَرَّغُ مِنهُما إلَى المِراءِ وَالمُباهاةِ مَعَ النّاس»؛ أي حين يشتغل المرء بامتثال أوامر الله سبحانه ونواهيه لا يجد وقتًا للأمور الأخرى، من مثل المباهاة مع الناس وقياس نفسه بهم، وأمثال هذه المآسي.

ثـم يقـول(ع): «فَـإذا أَكـرَمَ اللهُ العَبـدَ بِهٰـذِهِ الثّلاثَـةِ هـانَ عَلَيـهِ الدُّنيـا وَإبليـسُ وَالخَلـقُ»؛ أي سـيرى الدنيـا حقـيرة، ويصبـح إبليـس عنـده عبـدًا طريـدًا، بل لـن يهمه النـاس ومـا يقولونـه. «وَلا يَطلُـبُ الدُّنيا تَكاثُـرًا وَتَفاخُـرًا، وَلا يَطلُـبُ عِنـدَ النّـاسِ عِـزًّا وَعُلُـوًّا»؛ ولا يجمـع أمـوال الدنيـا، ولا يتفاخـر أمـام الآخرين، ولا يفتـش عـن العـزة عنـد النـاس فيشـقَى، لا يريـد أن يُمتطَـى ولا أن يَعلُو. ثم يقـول(ع): «وَلا يَـدَعُ أَيّامَهُ باطِـلًا»، وهـذه العبـارة تهـم الشـباب. فحـين نتحـدث عـن الإنفـاق والتكاثـر ومـا إلى ذلك سـينبري الفتى الـذي هـو في سـن الثانويـة قائـلًا: «ومـا الـذي أملك أنـا كي أعطي للآخريـن؟!» لكـن الإمام(ع) يقـول هنا: «لا يَـدَعُ أَيّامَـهُ باطِـلًا»؛ أي لا يُمـضي عمـرَه في الأباطيـل، ولا يُتلـف وقتـه بالعبـث. فالـذي ينبـذ الشـعور بالمِلكيـة جانبًـا لا يُتلـف وقتَـه بالأمـور العبثيـة. ثـم يقـول(ع) في آخـر الحديـث: «فَهٰـذا أَوَّلُ دَرَجَـةِ المُتَّقـين»! فتأمّـل مـاذا سـتكون درجـات التقـوى الأعـلى منهـا؟! فـأول درجـات التقـوى إذن هـي أن لا نشـعر بالمِلكيـة. لكننـا نشـعر بالمِلكيـة، فمـن الواضـح إذن أننـا لم نبلـغ حتـى الدرجـة الأولى مـن التقوى.

أفضل تمرين على عدم التعلق بالدنيا هو شَغْل الذهن بالشهادة وبسيد الشهداء(ع)

كيـف كان الإحسـاس بالمِلكيـة يتبـدد عنـد المجاهديـن في جبهـات القتـال؟ طالعـوا وصاياهـم. كتـب أحدهـم في وصيتـه: «أبي، أمـي، الدنيـا لا قيمـة لهـا! لا تتعلّقـا بهـا!» هـذا ونحـن لا نملـك دنيًـا. فالدنيـا لا تسـتحق أن يتعلـق المـرء بهـا حتـى لأولئـك الذيـن يملكونهـا. فـما بالنـا نحـن الذيـن لا نملكهـا! لمـاذا نحن متعلقـون بهـا؟! البعـض لا دنيـا لـه، لكـن تـراه متشـبّث بهـا أيمـا تشـبث، وأمثـال هـؤلاء مخلوقـات مخيفـة جـدًّا. والبعـض الآخـر أقبلَـتْ عليـه الدنيـا وهـو ذائـب فيهـا تمامًـا. أمثـال هـؤلاء أيضًـا تُعَسـاء مـع الأسـف. فـإنْ أراد المـرء اجتثـاث الدنيـا مـن قلبـه فيجـب عليـه أن يشـاهد عـن كثـب أولئـك الذيـن اجتثّوهـا مـن قلوبهـم، ونبَـذوا الشـعور بالمِلكيـة بعيـدًا، ولا يجمعـون المـال، وهـم مـن أعـماق قلوبهـم لا يسـعَون للاحتفـاظ بمـا يملكـون. ليـس إنهـم لا يملكـون شـيئًا، فنحـن لا نعـارض الـثروة؛ فقـد يكـون الرجـل موسِرًا وصالحًـا في الوقـت ذاتـه، ليـس متعلّقًـا بالدنيـا قيـدَ شَـعرة، ويُنجـز بأموالـه أعـمالًا جَمّـة.

علينا أن نتمرس على عدم التعلق بالدنيا، وأفضل تمرين في هذا الميدان هو أن تشغل ذهنك بالشهادة، وتتردّد كثيرًا على سيد الشهداء(ع)، وتُكثِر من قراءة المراثي له. فقراءة المراثي هذه أمر عجيب للغاية! لقد تشرّدت العقيلة زينب(س) بعد استشهاد أخيها أبي عبد الله الحسين(ع) من خَرِبة إلى خربة. إلهي، ألا تدَعْها - في أسوأ ساعاتٍ يمكن أن تمُرّ على بشر؛ أي بعد استشهاد كل أحبّائها - تنزوي في ركن قَصِيّ فتنتحب! يا رب، وكأنك لا تريد إنهاء الأمر! لقد ضحَّت بكل أحبّتها، أَوَيتحتّم عليها فوق ذلك أن تبذل كل ما تملك، بشتى الصور، في سبيل الله؟! هذه المراثي والمآتم هي أروع دروس لنا في البذل والعطاء. كم نادى ذوو الشهداء عند جثامين أحبتهم: «فداء لرأس السيدة زينب!» يا زينب، لقد تمسكنا بك... اِرمِ بطَرفِك إلى سيد الشهداء(ع)، هذا هو الدرس الذي علينا استقاؤه من محرم والمآتم. لا بد أن يحصل في مجالس عزاء أبي عبد الله الحسين(ع) أعظم أشكال الإنفاق والمواساة. لا بد لأسوأ أنواع الكروب والمآسي التي يعيشها المؤمنون المحرومون أن تُفَرَّج في شهر مُحرّم. فهذا الشهر هو شهر البذل والعطاء.

حين يريد الحسين(ع) قطعَ تعلّق امرئٍ بالدنيا فإنه يحدّثه عن نبي قطيع الرأس!

ما الإحساس الذي يجب أن يجتاحك حين تجد نفسك في العشرة الأولى من المحرم في أجواء أبي عبد الله الحسين(ع)؟ إنه إحساس أنّ علينا أن نستلهم من الشهادة هذا الدرس، وهو: « أنّ علينا قطع تعلّقنا بالدنيا»، وهو الأسلوب الذي انتهجه أبو عبد الله(ع) نفسُه. بحسب ما ينقله مقتل أبي مِخنَف فإنه لما عزم أبو عبد الله الحسين(ع) على الرحيل جاءه عبد الله بن عمر وحذره من الذهاب، فوعظه الإمام الحسين(ع) من أنه لا قيمة لهذه الدنيا؛ فهي الدنيا ذاتها التي كان بنو إسرائيل فيها يذبحون أنبياءهم صباحًا ثم ينشغلون بأعمالهم وممارسة حياتهم العادية نهارًا، ودعاه هو أيضًا إلى نصرته؛ «...ثُمَّ جاءَ عَبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ فَأَشارَ عَلَيهِ بِصُلحِ أَهلِ الضَّلالِ وَحَذَّرَهُ مِنَ القَتلِ وَالقِتالِ.

فَقالَ(ع): يـا أَبـا عَبـدِ الرَّحمٰـنِ، أَمَـا عَلِمـتَ أَنَّ مِن هَـوانِ الدُّنيا عَلَى اللـهِ تَعـالى أَنَّ رَأْسَ يَحيَى بْـنِ زَكَرِيًّا أُهـدِيَ إِلَى بَغِـيٍّ مِـن بَغايـا بَنـي إِسرائيـلَ؟! أَمـا تَعلَـمُ أَنَّ بَني إِسرائيـلَ كانُـوا يَقتُلُونَ مَـا بَيْنَ طُلُـوعِ الفَجرِ إِلى طُلُـوعِ الشَّـمسِ سَـبعينَ نَبِيًّـا ثُـمَّ يَجلِسُـونَ فِي أَسـواقِهِم يَبيعونَ وَيَشـتَرونَ كَأَنْ لَـم يَصنَعوا شَـيئًا... اتَّقِ اللـهَ يـا أَبـا عَبـدِ الرَّحمٰنِ وَلا تَدَعْ نُـصرَتي» (بحار الأنـوار/ ج٤٤/ ص٣٦٥). فحين يود الحسـين(ع) أن ينتزع حـب الدنيـا مـن قلـب امرئ يحدّثه عـن نبي قطيـع الرأس! ما الـذي ينبغي للشـهادة أن تصنـع بقلوبنا؟!

بوسع عزاء سيد الشهداء(ع) أن يقطع تعلقاتنا بالدنيا

حـين بلـغ الإمـامَ الحسـين(ع) خـبرُ مقتـل مسـلم بـن عقيـل ظـل الجميـع يترقـب مـا سـيقوله(ع)، وهـل سـيواصل المسـير أو يعـود؟ لاحـظ عبـارة الإمـام الحسـين(ع) هنـا: «لا خَـيرَ في العَيـشِ بَعـدَ هٰـؤُلاء» (الإرشـاد للشـيخ المفيـد/ ج٢/ ص٧٥)؛ أي: إننـي، الحسـين، قـد قطعـتُ تعلقـي بالدينا بعـد سـماع خـبر شـهادة مسـلم بـن عقيـل! عـلى أن الإمـام(ع) دائمًـا مقطـوع التعلق بالدنيـا ولم يتشـبّث بها يومًـا، لكنه يعلّمنـا أن: متـى مـا سـمعتم خـبر استشـهاد شـخص كونـوا هكـذا. مـاذا قـال الإمـام الحسـين(ع) بعـد شـهادة ولَـده عـلي الأكـبر؟ قـال: «عَلَى الدُّنيـا بَعدَكَ العَفـا» (مناقـب آل أبي طالـب(ع)/ ج٤/ ص١٠٩). بل إن المـرء ليكـره البقـاء في مثـل هـذه اللحظـات. هـذا هـو أثـر الشـهادة. أتصلُـح الدنيـا التـي يُمطَـر فيهـا عـلي الأكـبر بالنبـال للإقامـة؟! شـهادة أبي عبـد اللـه الحسـين(ع) والمـراثي التـي تُتـلى علينـا بهـذه المناسـبة لا تحتـاج معهـا إلى دروس أخـلاق، فالعـزاء وحـده كافٍ، ويتعـين أن ينتـزع قلوبَنـا مـن الدنيـا، الدنيا التي لم تحتفـظ بأعـز مـا يملـك الحسـين(ع)، وهـو ولـده عـلي الأكـبر(س)، لحظـة واحـدة. سـاعةَ توجّـه عـلي الأكـبر إلى ميـدان القتـال وحـين اسـتأذن أبـاه في القتـال أَذِنَ لـه الحسـين(ع) دون أي تـردد: «اِمـضِ عزيـز قلبـي!» كي لا يُفهَـم أنـه: «مـن الصعـب عـليَّ بعـض الـشيء أن أضحـي بأعـزِّ مـا أملـك، كلا، أبـدًا....».